مستقبل التعليم الفنى (*)

د٠ سعيد اسماعيل على

فى كتابه الشهير (مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) يقف مفكرنا العظيم رفاعة الطهطاوى طويلا أمام حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه : «اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له» فيما يرويه الامام مسلم ٠ وهو يقف بصفة خاصة أمام هذه العبارة (علم ينتفع به) ليتساءل عما هو هذا العلم النافع الذى يعد أحد علامات ثلاث تشير الى فوز الانسان فى المعاش وفى المعاد ٠

فهو بعد أن يؤكد على ضرورة العلوم الشرعية باعتبارها علوم مقاصد ، يجىء الى الفنون والصناعات فيؤكد أن علوم الشريعة لاتتم الا بها ، وما لايتم الواجب الا به فهو واجب ، يقول «٠٠ فان الفنون والصناعات عليها انتظام الممالك وتحسين الحالة المعاشية للأمم والآحاد فهى من فروض الكفايات» ٠

ولم يكن رأى الطهطاوى هذا مجرد ومضة فكر وتحليقا فى أجواء الأمانى والأحلام ، فقد كانت الثقافة فى مصر وكان التعليم فى أوائل القرن التاسع عشر قد بدأ يشهد تحولا جذريا من ثقافة الكلمة الى ثقافة الفعل من ثقافة البيارق والدفوف والأدعية والأشعار الى ثقافة المدفع والبارود والنظام والانتاج ٠ وهكذا كانت أولى معاهد التعليم التى أنشأها مؤسس مصر الحديثة محمد على هى : مدرسة الهندسة سنة ١٨١٦ ومدرسة للمعادن سنة ١٨٣٤ ومدرسة للمحاسبة سنة ١٨٣٧ ومدرسة للفنون والصنائع سنة ١٨٣٩ ومدرسة نبروه للزراعة سنة ١٨٣٨ ٠٠ وهكذا ٠

بل لقد أرسلت سنة ١٨٣٩ بعثات صناعية الى النمسا وانجلترا وفرنسا،

---

* ـ كلمة ألقيت بمؤتمر رابطة التربية الحديثة الثالث عشر عن (مستقبل التعليم الفنى) بكلية التربية ، جامعة عين شمس ، يوم ١١٩٣/٧/١٣ ، بحضور د٠ حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم ٠

وكانت بعثة فرنسا لدراسة صناعة البصمة وآلات الجراحة والســـــاعة والصباغة وصناعة الشمع والأقمشة والأسلحة ، أما بعثة النمسا فكانـت لدراسة صناعة النسيج الصوف وبعثة انجلترا لتعلم الميكانيكا وصناعـــة المدافع والصينى وغيرها ٠٠ الخ ٠

هكذا كان الأمر فى هذا البلد منذ قرن ونصف من الزمان ٠ ٠

كان مفكرو الأمة يعقدون وينظرون ويحللون فى سياق واقع تعليمى نسيجه من نفس الخيوط ومن نفس الألوان ٠

فماذا أصبح عليه الأمر بعد قرن ونصف من الزمان ؟

علماء التربية وأساتذتها يغمرون سوق الفكر بآيات المديح والتقريظ اعلاء من شأن التعليم الفنى ٠٠

معاهد الدولة تضم من تلاميذ التعليم الفنى أكثر مما تضم معاهد التعليم العام ٠٠ فهل يمكن أن نركن الى هذه المؤشرات لنطمئن على هذا النظام ؟

لا أريد أن أسبق بالاجابة ، فبحوث المؤتمر وندواته ومناقشاته ستتولى ذلك ، لكن ما أحب أن ألفت النظر اليه مقدما ، مؤشرات أخرى :

ـ فلا أحد منا : أساتذة التربية وعلماءها ، ولا أحد من كبار مسئولى الدولة عموما والتعليم خصوصا له ابن أو ابنة فى التعليم الفنى ٠

ـ وعندما طرحنا الورقة الخاصة بهذا المؤتمر على جميع كليات التربية بمصر والوطن العربى ، لم يستجب لنا من بين مئات أعضاء هيئات التدريس الا هذا العدد الذى يتجاوز أصابع اليدين بقليل ٠

ـ عندما وجهنا الدعوة الى أجهزة الاعلام لتغطية وقائع هذا المؤتمر كانت الاستجابة تنبىء بأن هذا الموضوع ثقيل الدم لايستحق أن يحتل مكانة على الشاشة الصغيرة وموجات الاذاعة وصفحات الصحف ٠

تلكم هى النسبة بين حجم قضية التعليم الفنى وبين تفاعلنا بها ٠

والحق أقول : اننا فى حاجة ماسة الى تقييم خبرة الأمة فى هـــذا التعليم ..

أن الذين ميزوا بين الانسان وغيره ، بأنه كائن ذو تاريخ ، لم يقصدوا مجرد امتلاك الانسان لأبعاد الزمان وأبعاد المكان ، فما من كائن آلا وهـو يتحرك فى هذه الأبعاد ، وانما كان القصد هو الوعى بالتاريخ ، وتمثل هذا الوعى فى العمل والسلوك .

وبقدر تقييم الخبرة وانعكاس نتائج هذا التقييم على الخطوة التـــالية يكون موضع أقدامنا على الطريق .

وأرجو ألا أكون متجنيا اذا قلت أن فعلنا فى هذا الشأن كان ضئيلا .. ففى فترات متعددة تقوم هبة تغيير من غير أن يكون ذلك نتيجة تقييم علمى موضوعى مدروس يأخذ وقته من البحث .

لقد برزت تجربة المدرسة الشاملة لتقدم صيغة تكامل بين الدراســة النظرية الأكاديمية والعمل الفنى التطبيقى بدلا من تلك القسمة الشهيرة الـى تعليم أكاديمى وتعليم فنى ، ولم توفر لهذه التجربة الحدود الدنيا لما هـــو معروف عن المدرسة الشاملة . واذ كان مؤتمر قد انعقد عن هذه القضية الا أن هذا يختلف تماما عما نقصده ، فها هنا باحثون متفرقون ، كل يختـار الجانب الذى يريد والذى قد يتكرر مع آخرين . أما التقييم العلمى فهناك فريق يعمل وفق خطة عن قصد وتوجيه وتضافر بين الدراسات والبحوث .

ويظل السؤال : هل وفرنا مقومات الأخذ بهذا النهج ففشل ؟!

ولقد برزت منذ فترة قصيرة توجهات نحو نهج آخر فى التعليم الفنـى يقول بما يسمى النظام المزدوج ، فهل تم ذلك بعد دراسة وتقييم للنظام الحالى القائم ورؤى فشله ومن ثم ضرورة الأخذ بالنظام الجديد بعد دراسة امكانيات وظروف تطبيقه وتوفير الحد الأدنى الضرورى لنجاحه ؟!

وهناك فلسفة تقول بأن التعليم الفنى لاينبغى التعامل معه كنظام وكنسق قائم بذاته ، وانما الأفضل التعامل معه كمنهج وكأسلوب يتخلل مختلف برامج التعليم بحيث تسقط هنا أيضا هذه القسمة الضيزى بين تعليم فنى وتعليـــم أكاديمى ، فهل بحثنا هذا ودرسناه وتيقنا من عدم صلاحيته ؟!

ان المعضلة الكبرى فى قضية التعليم الفنى أنه على الرغم من أنها تبدو مسألة تكنوقراطية يختص بها نفر من الفنيين ، الا أنك لو قلبت جوانبها المختلفة وأمعنت النظر فيها ، فسوف تجد أننا لابد وأن ننتهى الى طريق شائك ، طريق المسائل الكبرى التى قد يكون فعلنا للتغيير فيها قد لايتعدى حدود الأمانى والأحلام ..

فها هو النظام العالمى اليوم يتمخض ليلد لنا قطاعا (بضم القاف وتشديد الطاء) يسيرون ويوجهون فى الطريق الذى يريدون ، والويل كل الويل لمن يفكر فى ألا يطيع ..

ان هذا من شأنه أن يرسم طريقا للتنمية لا طريق الاه : بفلسفته ونهجه وغاياته . وأخطر ما فى الأمر هنا أن هذا الطريق هو طريق المهمشين الذين يعملون ويكدون ويكدحون ليجنى غيرهم من هذا الكد وهذا الكدح أكثر مما يجنون .

وطريق مثل هذا ، يتطلب تعليما من نوع خاص يتلاءم وأهداف هذه التنمية وفلسفتها .

وبتفاعل هذه المتغيرات العالمية الخارجية مع ظروف ومتغيرات اقليمية، أخذت ديانة جديدة غير معلنة فى التشكل تؤكد عبادة القوة . وليست القوة مذمومة فى حد ذاتها وعلى اطلاقها ، وانما المذموم - كما هو حادث اليوم - أن تكون قوة غشوم تعتبر نفسها مقياس كل شىء ، ان رأت الباطل حقا فهو كذلك ، وان رأت الحق باطلا فهو كذلك .

ومن شأن عبادة القوة أن تفرز معها عبادة السلطة ، ومن شأن هذا وذاك وشيوعه أن يضعف قدرة الفكر على وجه العموم والتربوى على وجه الخصوص أن يكون رحما سويا تتخلق فيه السياسات المأمولة لمستقبل الأمة .

ومصداقا لهذا فقد برزت ظاهرة قديمة / جديدة ، هى مايمكن أن نسميهم سوفسطائيو النظام العالمى الجديد . فقديما برزت أثينا كمسرح لنفر من المثقفين والمفكرين يملكون من براعة الاستنباط ومهارة الاستدلال مايقدرون معه على أن يدافعوا اليوم عن قضية ، حتى اذا جاء الغد تكون لديهم القدرة كذلك على أن ينقضوا نفس القضية ببراعة الاستنباط ومهارة الاستدلال ، وأصبح

كل واحد من هذه الفئة الجديدة / القديمة يحمل مقدارا لابأس به من الأصباغ وألوان المكياج ليغير فى الطلاء والدهان وفقا لتغير المواقف والأحوال وتبدل المظلة التى يقف تحتها ٠

ولعل هذا يفسر لماذا كان هذا الحرص الواضح من علماء الأمة الأقدمين على ضرورة أن تظل هناك مسافة بين العالم والأمير ، على أساس أن هذا يتيح للعالم أن يستمر فى القيام بدوره فى الارشاد والتوجيه ، لكن انتفاء هذه المسافة يجعل هذا الدور قائما على التسويغ والتبرير ٠ وهكذا رأينا ابن الجوزى ، اذ يكتب عن (تلبيس ابليس) يضع فى مقدمة هذا التلبيس وقوف العلماء بأبواب الأمراء ، ورأينا (المقرى) يكتبكتابا كاملا بعنوان : (تبعيد العلماء عن تقريب الأمراء) ٠

ان الفكر مسئولية ، والكلمة أمانة ٠ ومسئولية المفكر التربوى وأمانة عالم التربية تفرضان عليه أن يظل محافظا على دوره المفروض ، دوره الارشادى لا التسويغى ٠٠ مؤديا دوره المأمول ٠٠ التوجيه لا التبرير ٠

ومن مقتضيات الارشاد والتوجيه ، أن يستمر الالحاح على الركائز المجتمعية لنهضة التعليم الفنى خاصة والتعليم كله عامة ٠ وقد يرى البعض ان تلك الركائز التى سنشير اليها انما هى مقولات كانت تتردد فى ظل نظام عالمى انهار ، مما يفرض مقولات أخرى ٠ ونحن نؤكد أن تلك المقولات التى نشير اليها لم تكن ملكا لنظرية بعينها ولامجتمع بذاته ٠ بل ان سقوط النظرية وسقوط النظام لايسقط هذه المقولات ، ذلك أن أحد أسباب السقوط أن هذه المقولات لم تعرف الطريق الصحيح للتطبيق السليم ووقفت عند حد الترديد الكلامى ٠

أما هذه الركائز فيمكن أن نشير اليها ايجازا فيما يلى :

ـ تنمية ذاتية تتوجه بأهداف الأمة بالدرجة الأولى وبسواعد أبنائها ٠ أما مقولة الاعتماد المتبادل فهى حصان طروادة للتبعية لأنها لاتكون الا بين اندادد ، أما عندما تكون بين قاهر ومقهور فانها ليست الا بين أكل ومأكول٠

ـ ارادة وطنية ، لاتتبدى فى عملية اتخاذ القرار وانما فى صنعه وفى رسم أهدافه وفى توقيته ، وهى لاتتعارض وانما تتعاضد مع ذلك التوجه العالمى نحو التكوينات العضوية ٠

- المشاركة الأهلية التى لاينبغى أن تتبدى فقط فى تحمل النتائج ومواجهة المشكلات ودفع الفاتورة وانما تكون حاضرة دائما منذ البدايات حتـــى النهايات ٠

(وأن هــذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عــن سبيله ٠ ذلك وصاكم به لعلكم تتقون) الأنعام / ١٥٣ ٠